العرب
الجمعة 2019/09/27
السنة 42 العدد 11480

ترامب وإيران... ذكاء ومخاطر

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

تتّبع إدارة دونالد ترامب سياسة في غاية الذكاء في تعاطيها مع إيران. لكنّ هذه السياسة الذكية، المرتكزة على العقوبات، تنطوي في الوقت ذاته على مخاطر على دول المنطقة، خصوصا دول الخليج العربي التي لم تتردّد "الجمهورية الإسلامية" في استهدافها. هذا ما حصل أخيرا مع المملكة العربية السعودية حيث تعرّضت منشآت "أرامكو" في بقيق وخريص لهجمات إيرانية بالصواريخ. يعتبر ذلك اعتداء على الاقتصاد العالمي وليس على السعودية وحدها.

استطاعت السعودية إصلاح الأضرار سريعا، على الرغم من حرمانها لبضعة أيام من تصدير نحو خمسة ملايين برميل نفط يوميا. الأكيد أن ذلك فاجأ إيران التي كانت تعتقد أن السعودية ستكون عاجزة عن إصلاح الأضرار في غضون أيّام، وأن سعر برميل النفط سيرتفع إلى مئة دولار. من أهمّ ما تلا الاعتداء الإيراني أن سعر برميل النفط لم يرتفع إلا قليلا مباشرة بعد الاعتداء. ما لبث السوق النفطي أن أخذ مجراه الطبيعي بما يشير إلى أن إيران لم تأخذ علما بالتحولات العالمية في مجال الطاقة.

إدارة دونالد ترامب تتّبع سياسة في غاية الذكاء في تعاطيها مع إيران. لكنّ هذه السياسة الذكية، المرتكزة على العقوبات، تنطوي على مخاطر على دول المنطقة، خصوصا دول الخليج العربي التي لم تتردّد «الجمهورية الإسلامية» في استهدافها

لكن السؤال الذي بقي يطرح نفسه بحدّة، في ضوء خطاب دونالد ترامب أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة، ما الذي ستفعله إيران في حال إصرار الإدارة الأميركية على فرض مزيد من العقوبات عليها؟

ليس لدى إيران ما تردّ به على العقوبات غير استهداف دول الخليج، وذلك في غياب أي رغبة أميركية في الذهاب إلى توجيه ضربات مباشرة إليها. الأكيد أن العقوبات الأميركية أثرت كثيرا على الاقتصاد الإيراني. تكاد هذه العقوبات أن تخنق إيران. الأكيد أيضا أنّ إيران تراهن على سقوط دونالد ترامب في الانتخابات الرئاسية المقرّرة في تشرين الثاني – نوفمبر 2020. هذا يعني بوضوح ليس بعده وضوح أنّ "الجمهورية الإسلامية" مصرّة على استمرار الوضع الراهن المتمثل في رفض استيعاب أنّ عليها تغيير سلوكها.

هناك دوران في حلقة مقفلة ما دام "المرشد" علي خامنئي يرفض التعاطي مع الواقع، أي الاعتراف بأنّ إيران ليست قوّة عظمى، وأن في استطاعة قوى مهمّة مثل الصين استخدامها في إطار صراعات، ذات طابع تجاري، مع الولايات المتحدة، لا أكثر. ليس في إيران من يريد أن يطرح سؤالا في غاية البساطة. هذا السؤال هو الآتي: ما الذي يفيد في المدى الطويل أن تكون هناك سيطرة إيرانية على أربع دول عربية هي العراق وسوريا ولبنان واليمن؟

حسنا، اعترف العالم بسيطرة إيران على هذه الدول الأربع وعلى عواصمها. أين تُصرف هذه السيطرة سياسيا ما دام الطفل يعرف أن ليس لدى إيران ما تقدّمه غير التخلّف.

يفترض في إيران أن تعرف أنّ كلّ ما تقوم به لا يخدم أيّ قضيّة. لا يخدم القضيّة الفلسطينية التي أخذت على عاتقها المتاجرة بها، ولا يخدم قضيّة أي شعب عربي يسعى إلى تحقيق تقدّم ما على الصعيد الاجتماعي. ما الذي قدمته إيران إلى العراقيين غير مزيد من الفقر والبؤس؟ ما الذي قدمته للسوريين غير دعم نظام أقلّوي يشنّ حربا على شعب بكامله يبحث عن حدّ أدنى من الكرامة؟ ما الذي قدمته للبنان واللبنانيين غير جعلهم يعيشون تحت سطوة ميليشيا مذهبية مسلّحة لا همّ لبنانيا لها، بل إنّ كلّ همّها محصور في كيفية تحويل لبنان إلى ورقة إيرانية؟ مثل هذا التصرّف الإيراني في لبنان لا يمكن أن يؤدّي سوى إلى إفلاس البلد وإلى هجرة مزيد من اللبنانيين، خصوصا من المسيحيين، إلى أيّ مكان آخر خارج لبنان.

ما الذي لدى إيران تقدّمه إلى اليمن غير مزيد من التخلّف والأمراض والغرائز المذهبية؟ ليس لدى الحوثيين الذين يرفعون شعار "الموت لأميركا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود" ما يساهمون به غير انتشار مزيد من الفقر والأمراض في كلّ أنحاء اليمن. أميركا لم تمت ولن تموت، وإسرائيل احتلت هضبة الجولان السورية ووضعت يدها على القدس الشرقية، فيما اليهود في وضع يحسدون عليه.

تستطيع إيران شنّ المزيد من الهجمات على دول عربية، خصوصا في منطقة الخليج. ما لا تستطيعه هو التصالح مع المنطق والواقع ومساعدة الشعب الإيراني في سعيه إلى العيش بطريقة أفضل. مثل هذا التصالح مع المنطق والواقع يتطلّب شجاعة بدءا بالاعتراف بأنّ ما يزيد على نصف الشعب الإيراني يعيش تحت خط الفقر، وأن لا شيء ينقذ إيران غير العودة إلى دولة طبيعية من دول المنطقة بدل السير في مشروع توسّعي لا أفق من أيّ نوع له.

هناك عقوبات أميركية وهناك رغبة لدى إدارة ترامب في تفادي أي مواجهة عسكرية مباشرة مع إيران. لا يمكن التعاطي مع هذه المعادلة عن طريق مزيد من المواقف الهجومية تجاه دول الخليج العربي التي تسعى إلى تطوير نفسها داخليا. بدل الاعتداء على دول الخليج عن طريق صواريخ تطلق من إيران أو عبر ميليشيات مذهبية عراقية ولبنانية ويمنية تعمل بإمرة "الحرس الثوري"، هناك طريق آخر تستطيع إيران انتهاجه. هذا الطريق هو طريق الاعتراف بأن العالم بات مقتنعا بأنّ المشكلة مع "الجمهورية الإسلامية" ليست في الاتفاق النووي الذي وقعته مع مجموعة الخمسة زائدا واحدا في تموز- يوليو من العام 2015. المشكلة في الدور الإيراني في المنطقة وفي الصواريخ الإيرانية التي تستهدف كل دولة عربية في الخليج.

ليس كافيا إعلان الرئيس الإيراني عن الاستعداد للبحث في بعض التعديلات التي تتناول الاتفاق النووي الذي اعتبرته إدارة باراك أوباما بمثابة إنجاز بحدّ ذاته، رافضة رؤية ما هي السياسة الحقيقية لإيران في المنطقة.

ما يبدو مطلوبا أكثر من أيّ وقت هو الاعتراف الإيراني بأنّ ثمّة حاجة إلى اتباع نهج جديد. في أساس هذا النهج أن تأخذ إيران حجمها الطبيعي في المنطقة بعيدا عن الأوهام التي تصنعها الميليشيات المذهبية في العراق وسوريا ولبنان واليمن. هذه الميليشيات لا مستقبل لها ولا تبني دولا ولا تصنع أدوارا. كلّ ما في استطاعة هذه الميليشيات عمله هو خدمة إدارة أميركية لا تمتلك أيّ قيم أخلاقية من أي نوع، وتؤمن فعلا بأنّ العقوبات كافية لإخضاع إيران بغض النظر عمّا يحلّ بهذه الدولة العربية أو تلك.

ليس في وارد هذه الإدارة أن تأخذ في الاعتبار المخاطر التي ستترتب على اكتفائها بالعقوبات. في النهاية أنّ همّ ترامب محصور في العودة إلى البيت الأبيض في السنة 2020. يبدو أن هناك نقطة تلاق إيرانية – أميركية. الطرفان مهتمان بما يخصهما. ترامب مهتم بالانتخابات الرئاسية المقبلة وخامنئي مهتم بمستقبل نظام يعرف جيّدا أن نهايته تبدأ عندما تعود إيران دولة طبيعية من دول المنطقة. دولة تهتمّ بشعبها ورفاهه أوّلا.

أوباما الجديد...

محمد قواص
صحافي وكاتب سياسي لبناني

تحوّل غريب طرأ فجأة على موقف العواصم بشأن كيفية التعامل مع القصف الذي طال منشآت أرامكو في السعودية. بدا في الأيام التي تلت الحدث في 14 سبتمبر أن العالم أعاد التموضع وفق معطى جديد عنوانه الأكبر أن الجرم ليس اعتداء على السعودية فقط، بل على سوق الطاقة في العالم، ويشكل انتهاكا للنظام الدولي في أعرافه و قوانينه وقواعده. الرياض، وعلى لسان العاهل السعودي وولي عهده، أفتت بأن الهجمات اعتداء على سيادتها كما هي اعتداء على استقرار مصادر الطاقة في العالم أيضا. بما يعني أن الردّ وجب أيضا أن يكون ردا دوليا لا لبس فيه.

فهمنا أيضا هذا التحوّل الدولي الذي طرأ على مواقف دول لطالما مارست تحفظا في الانخراط في الصراع الدائر بين إيران والولايات المتحدة منذ قرار الرئيس الأميركي دونالد ترامب سحب بلاده من الاتفاق النووي مع إيران الموقع في فيينا عام 2015.

تحدث رئيس وزراء اليابان، شينزو آبي، عن "الجريمة الخسيسة" في معرض وصفه لاعتداءات أرامكو. قبله شكك وزير الخارجية الفرنسي جان إيف لودريان برواية جماعة الحوثي حول مسؤوليتهم عن ذلك الفعل، فيما تواصل رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون والمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل واتفقا على "رد جماعي" على ما ارتكب وضد من ارتكب.

لم تتهم السعودية رسميا إيران بأنها وراء الاعتداء الذي تعرضت له منشآتها. تحدثت عن أسلحة إيرانية استُخدمت، وعن شكوك بأن تكون إيران وراء إطلاق الصواريخ والمسيّرات باتجاه أراضي البلاد، على أن لا يصدر موقف جازم إلا بعد الانتهاء من التحقيقات. الأمم المتحدة ودول أخرى، منها فرنسا، أرسلت خبراءها للمشاركة في تلك التحقيقات، فيما روسيا والصين تدعوان إلى عدم استباق التحقيقات وتدّعيان انتظار نتائجها.

لم تتهم الرياض طهران. لكن واشنطن فعلت ذلك منذ الساعات الأولى التي تلت الاعتداء. اتهم وزير الخارجية مايك بومبيو إيران، وأيده بذلك رئيسه دونالد ترامب. لم تتهم الرياض طهران، لكن لندن، على لسان رئيس وزرائها بوريس جونسون، حمّلت إيران مسؤولية الإثم، قبل أن ينضم جونسون إلى زعماء فرنسا وألمانيا في إصدار بيان، يمثّل الترويكا الموقعة على اتفاق فيينا، يحمّل إيران مسؤولية هذه الاعتداءات.

لم تتهم الرياض إيران، لكن كمّ الغضب الذي عبّر عنه المجتمع الدولي بعواصمه ومنابره أوحى بأن العالم ذاهب إلى إنهاء هذا العبث الإيراني، مقتربا بذلك من موقف الولايات المتحدة في مواجهة "أكبر دولة راعية للإرهاب" وفق القاموس الأميركي. بدأ العالم يتحدث عن تحالف دولي يجب أن يُشكل لوضع حد للسلوك الذي تنتهجه دولة الوليّ الفقيه في ارتكابها لـ"جرائم خسيسة" وفق تعبيرات رئيس الوزراء الياباني الذي تجنب، مع ذلك، اتهام إيران بالاسم بأنها وراء ذلك الإثم. بيد أن هذه المقدمات لم تذهب إلى مآلاتها المتوقعة.

من خارج أي سياق، وبعيدا عن جدل الكارثة التي حلّت بمنشآت أرامكو والخطر الذي داهم سوق النفط في العالم، خرج بوريس جونسون بالترياق السريالي العجيب.

قال الرجل إنه حان الوقت لإبرام اتفاق نووي جديد مع إيران. استيقظ ترامب على تعويذة جونسون فأيّدها. فيما خرج الرئيس الإيراني حسن روحاني بشقّ النفس يعلن أن بلاده مستعدة لإدخال تعديلات محدودة على ذلك الاتفاق إذا ما نفذت شروطها.

بدا في لحظة أن هذا العالم المتواطئ فجأة مع إيران يعزف سمفونية ناشزة لا شأن لها بلبّ الجدل ومحوره. فما علاقة قيام إيران بضرب منشآت أرامكو في السعودية بالاتفاق النووي والنزاع حوله؟ وأي علاقة تربط "الرد الجماعي" ضد من ارتكب "الجريمة الخسيسة" بتلك الاجتهادات المتعجلة الخاصة بالاتفاق النووي؟ ثم كيف باتت المشكلة مع إيران، بين ليلة وضحاها، محشورة في تفصيل الاتفاق النووي، فيما أن حقيقة المعضلة وفق الأدبيات الأميركية نفسها تتجاوز ذلك؟

لم يكن عنوان الاتفاق النووي إلا مناسبة أرادها ترامب للتعامل على نحو جذري مع ملف إيران، رافضا ومدينا ومستنكرا وكارها مقاربة سلفه باراك أوباما في التعامل مع إيران والتوقيع معها على "أسوء اتفاق في التاريخ".

انسحب الرجل من الاتفاق النووي (8 مايو من العام الماضي) ليأتي وزير خارجيته مايك بومبيو بعد أسبوعين (21 مايو) ليقدم مطالعة حول سياسة بلاده الجديدة في التعامل مع إيران. عرض الرجل لائحة من 12 مطلبا وجب على إيران التقيد بها والالتزام بتنفيذها لرفع العقوبات وتطبيع علاقات واشنطن مع طهران. كان تعديل الاتفاق النووي واحدا من مواضيع تلك المطالب، فيما تناولت بقية الموضوعات الأخرى برنامج إيران للصواريخ الباليستية ومستقبل السلوك الإيراني المزعزع للاستقرار في الشرق الأوسط وأخرى تتصل بعلاقة إيران بالإرهاب وملفات أخرى.

بدا أن «عقيدة أوباما» التي أفرج عنها الرئيس الأميركي السابق في النسخة التي عرضها الصحافي الأميركي جيفري غولدبرغ في الـ«أتلانتيك» الأميركية (ربيع 2016) تتمحور حول السعي للاتفاق والاتفاق فقط مع إيران. هذا ما يفعله ترامب تماما.

فجأة انهارت الترامبية وعادت الأوبامية من جديد. يكرر الرئيس الأميركي على نحو ممل أنه لن يذهب إلى خيار الحرب مع إيران. يعيد من واشنطن، مع صديقه جونسون في لندن، تسليط الضوء على اتفاق جديد حول البرنامج النووي مسقطا ملفات أخرى تتعلق بالعبث الذي تمارسه طهران في الشرق الأوسط والعالم. يتدلل في الحديث عن الوساطة التي يجريها الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، زاعما أن لا حاجة إلى أي وساطة مع إيران فهي "تعرف ما يجب أن تفعل"، قبل أن يفعّل وساطة جديدة يقوم بها رئيس وزراء باكستان عمران خان. ووسط كل ذلك، وبعد الردح الذي مارسه ضد "إيران الدولة الإرهابية"، بقي "المرشح" دونالد ترامب يمنّي النفس بلقاء رئيسها حسن روحاني لعل في الصورة الفوتوغرافية التي تجمعهما ما ينفخ رياحا في أشرعة حملته الانتخابية.

فجأة بدا العالم بقيادة الولايات المتحدة لا يريد من إيران سوى إسقاط ورقة القنبلة النووية بصفتها أمرا محرما لن يقبل به شرق العالم قبل غربه. وعلى هذا يتعامل العالم مع سلوك إيران المزعزع للاستقرار في الشرق الأوسط، بما في ذلك قيامها، وفق تأكيدات واشنطن والترويكا الأوروبية، بشن الهجمات ضد منشآت أرامكو في السعودية، بأنه وجهة نظر قابلة للأخذ والرد.

وعلى هذا يبقى على أهل المنطقة أن يدلوا بدلوهم في هذا النقاش. السعودية دولة اعتدت عليها إيران بما يمثل إعلان حرب قررتها طهران. لم يعد مقبولا أن لا يرى العالم إيران إلا من العين النووية التي تقلق إسرائيل مستخفا بكمّ العبث الذي تمارسه في المنطقة من اليمن إلى لبنان، مرورا بالعراق وسوريا. ولم يعد مقبولا أن تحيك العواصم صفقاتها مع إيران دون أن يكون للمنطقة القول الفصل في تحديد وظيفة إيران الإقليمية. بدا أن موقف وزير الخارجية الإماراتي، الشيخ عبدالله بن زايد، حول ضرورة أن يشمل أي اتفاق مع إيران دول المنطقة هو ركن أساس في مقاربة المنطقة لعلاقاتها المستقبلية مع طهران.

بدا أن "عقيدة أوباما" التي أفرج عنها الرئيس الأميركي السابق في النسخة التي عرضها الصحافي الأميركي جيفري غولدبرغ في الـ"أتلانتيك" الأميركية (ربيع 2016) تتمحور حول السعي للاتفاق والاتفاق فقط مع إيران. هذا ما يفعله ترامب تماما.